

الفصل التاسع

الجنون.. منظور إسلامي

لم يترك الإسلام - ذلك الدين القيم - أى شأن من شئون حياة الإنسان إلا وشملها بتعاليمه ، لينظم حياة الإنسان فى كل الأحوال . وبمرور الزمن ، وأحكام الإسلام كثيرا ما نجد فيها الحل لكثير من المشكلات المعاصرة ، وفى هذا الجزء من البحث نهدف إلى بيان المنظور الإسلامى للمسائل المتعلقة بحقوق المرضى النفسيين ، والمسئولية الجنائية للمعاقين نفسيا وعقليا من خلال مراجعة أحكام الشريعة الإسلامية ، والبحث عن إجابة للمسائل النفسية والقانونية التى قمنا بعرضها فى الفصول السابقة، والتى كانت ولا تزال محل اهتمام من جانب الطب النفسى ، والقانون لما تثيره من جدل واعتبارات أخلاقية.

ولقد كان الإسلام أسبق من كل القوانين الوضعية والطب النفسى الحديث فى الإهتمام بكثير من القضايا الخاصة بحقوق المرضى النفسيين ، والمسئولية الجنائية ، وبيان الأحكام فى كثير من المسائل والمواقف منذ قرون عديدة ، ويمكن ان نستدل على ذلك بوضوح من خلال الرجوع إلى كتب الفقه الإسلامى لمعرفة وجهة النظر الإسلامية والأحكام الشرعية المستمدة من النصوص الصريحة والقواعد الكلية التى جاء بها الدين الحنيف لإستقامة الحياة للإنسان فى الدنيا والحساب بالثواب والعقاب فى الآخرة . ونظرا لأن هذا البحث محدود النطاق

فإنه لن يستوعب كل التفاصيل ، ونجد من المناسب أن نقتصر على الأمور الأساسية التي نتصور أهميتها من خلال عرضنا لها في الفصول السابقة.

نظرة عامة للمنظور الإسلامي للمرضى النفسيين :-

وضع الإسلام العدل والإحسان كأساس للتعامل بين الناس وقد سبق الإسلام كل القوانين الوضعية ، والوثائق الدولية حين كفل الإنسان في حالة الصحة والمرض النفسى كل الحقوق التي تمكنه من الحياة حتى في ظل حالة الضعف التي تنشأ نتيجة للمرض النفسى الذي يحرمه جزئياً أو كلياً من القدرات التي يتمتع بها غيره من أسوياء البشر، وهو حرمان لا يد له فيه ، ومن هنا كان العدل والإحسان .. حيث العدل وحده يقتضى المعاملة بالمثل لمريض ضعيف لا يقوى على المبادرة ، لذا وجب إضافة الإحسان حتى يكون الوضع ملائماً لهؤلاء المرضى فلا يتحمل المريض المحنة والابتلاء بمفرده دون حماية ورعاية تأخذ بيده ، وتساعده وتضمن له المعاملة الكريمة التي تملئها ظروفه ، والتي تمت عليها تعاليم الإسلام

- ✓ قال تعالى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... ﴾ [سورة النحل ٩٠]
- ✓ وفى أمره سبحانه وتعالى ﴿ ... وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ... ﴾ [سورة القصص ٧٧]

وقد ورد لفظ "مجنون" في ١١ موضعاً في القرآن الكريم :

- ✓ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الجحر ٦]
- ✓ ﴿ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء: ٢٧]
- ✓ ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الصافات: ٣٦]

﴿ إِنَّ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ قَوْلُوا لَعَنَهُ وَقَالُوا مَعَلَىٰ جَحْمُونَ ﴾ ✓

[سورة الدخان: ١٣، ١٤]

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ فَتَوَكَّلْ بِرَبِّكَ ۖ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ ✓

[سورة الداريات: ٢٨، ٢٩]

﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [سورة الداريات: ٥٢]

﴿ فَذَكَّبَ ۖ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْتَنِبٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة انفص: ٢٩]

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١﴾ ﴾ [سورة نمر: ٩]

﴿ ت وَالْقَالِبُونَ وَمَا يُسْطَرُونَ ﴿١٠﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة انفص: ٢]

﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُرْفَعُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [سورة النجم: ٥١]

﴿ وَمَا صَاحِبُكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة التكويم: ٢٢]

ونوضح هنا منها وصف مجنون في مواضع كثيرة في آيات القرآن الكريم .. وهي في أغلب الحالات وصف أطلقه الناس على ما لا يصدقون مما يأتي به أنبياء الله ورسله وكان في أغلب المناسبات التي ذكر فيها بلفظ "مجنون" في آياته القرآن الكريم هو ما يقوله الكفار عن أنبياء الله و الرسول الكريم حين جاء إليهم بالدعوة التي رفضوا التصديق بها فلم يكتفوا بالعناد والكفر بل حاولوا التشكيك في القوي العقلية لمن جاء بها، وقد حدثت مواقف متشابهة جاءت في آيات القرآن الكريم في كذيب أنبياء الله ورسله من أقوامهم جاء فيها قول قوم صالح .
 "قد كنت فينا مرجوا قبل ذلك"
 وقوم شعيب وهم يلو موته: "إنك لأنت الحليم الرشيد" .
 "لا بعدد كثيرا ما نقول"
 وقول قوم هود: "ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء"
 وهذه أمثلة لما واجه أنبياء الله ورسله وهم يدعون الناس إلى عبادة الله الواحد.

تعريفات

هنا نقدم في البداية نظرة عامة على بعض التعريفات الهامة من منظور الشريعة الإسلامية .

العقل :

هو منحة الله للإنسان ، ويتميز به على سائر المخلوقات، وهو مناط التكليف للإنسان ليكون خليفة في الأرض. وليعبد الله وينفذ أوامره، وقد جعله الإسلام إحدى الضرورات الخمس لماله من وظائف هامة في الفهم والتعقل والتدبير والتفكير وسلامة العقل أساسية لفهم التكليف والامتثال له، فالتكليف خطاب يحتاج إلى فهم لا يتحقق إلا بالعقل، وتعريف العقل في الطب النفسي لا يختلف كثيرا عن المعنى الذي ورد في كتب العقده، وأصل معنى العقل في اللغة المنع ، حيث يمنع النفس من فعل ما تبواه، والكلمة مأخوذة من العقال وهو الذي يمنع الناقة من السير حيث شاءت، وقد خاص في بيان حقيقته الأطباء والفلاسفة والعلماء وعرفه الإمام الشافعي بأنه آلة خلقها الله لعباده ليميزوا بها بين الأشياء وأضدادها ، ونقل عنه إنه " آلة التميز" ، وعرف " التفتازاني " وهو من الأحناف العقل بأنه " حقيقة يمكن الاستدلال به من الشاهد على الغائب، والإطلاع على عواقب الأمور والتمييز بين الخير والشر".

وذهب بعض العلماء إلى ان العقل هو العلم ذاته ، أو هو جوهر قائم بنفسه إستدلالاً بقول الرسول ﷺ " أول ما خلق الله العقل وقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم منك ، بك أخذ ، وبك أعطى ، وبك أحاسب " .

ويعنى ذلك أن العقل هو مناط المسئولية والتكليف ، ومن المنظور الاسلامي فإن العقل قد يصاب بأمراض أو اضطرابات "آفات" نفسية أو عقلية تؤثر على السلوك الإنسانى من أقوال وأفعال ، ويطلق على هذه الحالات وصف الجنون أو بعض معنى الأوصاف الأخرى ، وليس لكلمة الجنون أى مدلول فى تشخيص الامراض النفسية بالنسبة للأطباء النفسيين إلا أن مصطلح الجنون *Insanity or madness* تستخدم فى القانون ، وفى الفقه الإسلامى ، وهى كلمة دراجة واسعة الإستخدام بواسطة العامة للدلالة على حالة من اضطراب العقل.

وفى اللغة فإن الجنون من أصل "جن" أى اختفى واستتر، وتشير إلى ستر العقل نتيجة المرض، وفى معجم لسان العرب "الجنون" هو مصدر جُنَّ الرجل بالبناء للمجهول فهو محنون، أى زال عقله وفسد، أو دخلته "الجن" ، وفى الموسوعة الفقهية الكويتية : "الجنون هو اختلال العقل بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهجه إلا نادرا " ، ويعرفه بعض العلماء على إنه اختلال القوى المميزة يبين الأشياء الحسنة والقبيحة ، ويعرفه آخرون بأنه اختلال قوة إدراك الكليات ، ويكاد يوجد إتفاق على تعريف الجنون بين الشريعة الإسلامية والقوانين الحالية المعمول بها فى العالم العربى الإسلامى .

وليس الجنون نوعا واحدا ، بل تصنف حالاته إلى جنون مطبق ، وجنون طارئ ، أو متقطع حسب شدة الحالة ومدة استمرار الإصابة بها ، كما يذكر الفقهاء بعض الحالات الأخرى ذات الصلة بالجنون ، وهنا نذكر تعريفا لبعض منها:

ـ العتة: حلال عقلى يتسبب فى اختلاط العقل، وقد يكون كالجنون فيكون حكم المعتوه كالمجنون . أو الصنى غير المميز، وقد ينقص الأهلية فقط يكون حكمه كالصنى المميز .

ـ الدهش: وهو من مصدر "دهش" ويدل على الحيرة وذهاب العقل فى زهول.
ـ السفه: حالة ضعف لبعض ملكات النفس لا تنشأ عن مرض عقلى، والسفه يتجه غالبا إلى نسيير المال واتلافه على خلاف مقتضى العقل والشرع.

ـ العقلية: تشبه السفه فى ضعف ملكات النفس وتؤدى إلى سوء الإدارة والتقدير .

ملحوظة :

فيما نعتقد بأن هذه المسميات يقابلها بعض المصطلحات النفسية التى يستخدمها الطب النفسى الحديث وتشخيص الحالات النفسية . فالجنون يقابله الدهان *Psychosis* وهى حالة اضطراب عقلى شديد ، والعتة يقابله التخلف العقلى *Mental retardation* والخرف *Dementia* . وتعنى الأولى نقصا فى النمو العقلى يحول دون اكتمال العقل . والثانية تدهور العقل بعد اكتماله كما يحدث فى الشيخوخة . أما حالات الدهش فتقابل الجنون المؤقت *Transient psychosis* التى يستمر فيها الإضطراب العقلى لفترة زمنية محدودة ثم تتحسن الحالة ، أما السفه والغفلة فإنها أقرب إلى حالات اضطراب الشخصية أو الإنحرافات السلوكية *Personality or bechaviour disorders* . وهذا الإجتهد هو رأى شخصى يحاول الربط بين الفقه الإسلامى والقانون من ناحية ولغة الأطباء النفسيين من ناحية أخرى.

القضاء في الإسلام:-

عرضنا في الجزء الخاص بالجوانب القانونية للأمراض النفسية أنواع المحاكم ودرجاتها وتنظيم التقاضي في القوانين الحالية ، والقضاء في الإسلام له أصوله التي سبقت في التنظيم كل القوانين الحديثة ، وكانت ولاية القضاء في بداية الدولة الإسلامية يقوم بها الخليفة في إطار تدبير شئون المسلمين . وبعد ذلك أمكن الخلفاء تكليف قضاة ينوبون عنهم في تولى ولاية القضاء ، أو تكليف بعض من الأمراء ، لولاة لنظر المطالم ، وبذلك تفر كانت هناك جهتان للقضاء في النظر (الإسلامي هم

- القضاء المعتاد الذي يعرفه الفقه الإسلامي ويطلق عليه " القضاء او القاضي " ، ويقوم بالفصل في المسائل التجارية الشخصية والحدود والقصاص والمسائل المدنية .

- قضاء المطالم وهو النوع الإداري الذي يتولى النظر في مطالب الناس من القضاة والولاة والحكام ، ودر أعلى درجة من القضاء العادي ، وقد تولى ولاية المطالم رسول الله ﷺ بنفسه ، ثم الخلفاء الراشدون من بعده ، ثم ظهر ديوان المطالم الذي يشبه القضاء الإداري في النظم الحديثة .

ولم يرد في كتب الفقه الإسلامي كلمة " المحكمة " إلا أن وصف مكان التقاضي وشروطه تدل في كتب الفقه على وجود ما يشبه المحاكم الحالية ويستدل على ذلك بتنظيم الإختصاص للقضاة فمنهم من هو خاص النظر بمسألة معينة ، ومنهم من هو عام النظر ، وطلقات المحاكم في الإسلام قد عرفت التعدد قبل انقوائن الوضعية ، وعرف مبدأ التقاضي على درجتين حيث أجاز الفقهاء إستئناف وألطن في الحكم والتماس إعاد النظر قبل قرون من ظهور هذه النظم في الأنظمة الحديثة .